عقد اللؤلؤ (١٤)

يقول القاضي أبو بكر محمد بن عبدالباقي البزار الحنبلي (المتوفى ببغداد عام ٥٣٥ هـ) : كنت أعيش بمكة حرسها الله تعالى ، أعيش فيها عازباً في بيت صغير لا زوجة لي ولا ولد . فأصابني يوماً من الأيام جوع شديد لم أعهد مثله ، ولم أجد شيئاً أدفع به عني الجوع .. فلا خبز يابساً عندي ولا حتى تمرة واحدة أسد به جوعي ، فخرجت من بيتي ألتمس شيئاً آكله حتى لو وجدته في قمامة الطريق .

فلما خرجت من بيتي .. فما هي إلا خطوات حتى وجدت كيساً مشدوداً بخيط أسود ملقى على جانب الطريق ، فأخذته ونسيت جوعي ، وعدت مسرعاً به إلى بيتي . حللت الكيس فوجدت فيه عقداً من اللؤلؤ لم أرَ مثله . فبينما أنا أتأمل هذا العقد الجميل وأتفحصه بتعجب وسرور أن أكرمني الله به ورزقنيه .. سمعت صوتاً ينادي في الشارع . خرجت من داري فإذا بشيخ ينادي على الكيس ومعه صرة يحملها ينادي ويقول : هذه هدية مني لمن يرد علينا الكيس الذي فيه عِقد اللؤلؤ ، ٥٠ ديناراً لمن يجد الكيس ويرده عليَّ .

---

(١٤) : المصدر : كتاب ذيل طبقات الحنابلة (١ / ١٩٦) لابن رجب الحنبلي .. بتصرف .

obeikandl.com

فقلت في نفسي : أنا محتاج وأنا جائع ، آخذ الدنانير فأنتفع بها وأرد عليه عقد اللؤلؤ . إنها ٥٠ ديناراً أستطيع أن أشتري بها أغناماً وأبقاراً وجمالاً وكل ما أحتاج إليه من أمر الدنيا ، حتى أني أستطيع أن أجهِّز هذا البيت بأفضل المتاع وأتزوج فيه ، إنها ثروة حقيقية ستغير حياتي .. لكن لماذا يدفع هذا الشيخ كل هذه الجائزة العظيمة في هذا العِقد ؟! أترى هذا العقد يجاوز ثمنه ثمن الجائزة ؟! أم أنَّ هذا العِقد عزيز على هذا الشيخ وله معه ذكريات جميلة !! مالي وكل هذا .. المهم الآن أن أحصل على الجائزة واشتري منها ما يشبعني ويملأ بيتي بالزاد والمؤونة .

فناديت الشيخ الكبير وقلت له : تعال إليَّ . فأخذته وأدخلته بيتي . وقبل أن أسلمه العِقد ، قلت له : أريد أن يطمئن قلبي أنك حقاً صاحب الكيس وصاحب العِقد ، فأعطني علامتيهما . فوصف لي الشيخ الكيس ولونه ولون الخيط الذي شُدَّ به ، وعدد حبات اللؤلؤ وأحجامها . فأخرجته من مخبئه ودفعته إليه . فأعطاني الـ ٥٠ ديناراً وقال : هي لك جزاك الله خيراً . وهنا وفي هذه اللحظات .. تغير الذي كنت عازماً عليه . فلم آخذ الدنانير ، وقلت للشيخ : يجب عليَّ أن أعيده إليك ولا آخذ على فعلي هذا جزاءً .. هذا حقك ، وهذه لقطة ، وأنا أمين عليها ، ولن آخذ على ردي

الأمانة عوضاً أبداً . فقال لي بنبرة حادة عالية : لا بدَّ أن تأخذها . ألحَّ عليَّ كثيراً لآخذ دنانيره ، فلم أقبل ذلك منه ، فتركني ومضى .

والآن وقبل أن نكمل مع القاضي أبو بكر البزار قصته .. يا ترى ما الذي غيَّر نيته ؟ لقد كان أبو بكر جائعاً محتاجاً إلى هذا المبلغ !! أخرجه الجوع ساعياً للطعام حتى إن وجده في قمامة الجيران . ما الذي حدث في هذه اللحظات اليسيرة من اللقاء جعله يرفض دنانير الشيخ ؟

لعله عندما رأى حال الشيخ وكبره وهيئته الرثة المتعبة ، وسمع صوته الضعيف المتقطع ، تغير ما كان يعزم عليه من أخذ الجائزة ، فرد العقد ولم يأخذ لفعله هذا ديناراً واحداً . ويحصل هذا أحياناً في حياتنا .. يقف السائل بعيداً عنك في المسجد ، فيقف أمام الصف الأول يسأل الناس ، ويخرج أوراقه وما يثبت عوزه وحاجته ، لكنك من بعيد تحدث نفسك وتقول : ما أكثر هؤلاء المدَّعين المحتالين .. لعله أحدهم . لكنك عندما تصلي السنة ، وتهمَّ بالخروج من المسجد ، وتمر بجانب السائل وقد أصبحت قريباً منه ، تتغير نيتك .. لقد أصبحت الآن ترى بوضوح تجاعيد وجهه المتعب وأثوابه البالية المتسخة ، فتنسى شكوكك وتجود عليه بما تيسر

عنـدك . أو أنَّ الذي حصل كان من العقل والعلم والورع الذين إن اجتمعوا فيـك أنقذوك مـن المهالك والـزلات ، وأخمدوا فتنة النفس والشـيطان ، وذكَّروك بالرحمة والإيثار ، ورغبوك في الزهد والتطلع إلى ما عند الله من الفضل والخيرات . المهم أن القاضي أبو بكر لم يفسـر لنا لماذا تغيرت نيته بأخذ الدنانير من الشيخ رغم الجوع الشديد الذي أخرجه من بيته .

يقول القاضي أبو بكر : اشـتدت حالتي سـوءاً في مكة ، فلم أجد عملاً أعيـش منه .. لقـد ضاقت علي الدنيا بما رحبـت ، وأصبحت عليَّ الأرض ضيقـة ضنكة ، فقررت أن أركـب البحر . قررت أن أعمـل على ظهر إحدى السفن ، أنظف سطحها ، وأساعد في رفع الأشرعة ، وأحمل متاع المسافرين إلى مخابئها .. فلعل الحياة في مائها أهون عليَّ من ترابها .

ابتعدت بنا السفينـة عن الشاطـئ قليـلاً قليلاً ، حتى صرنا في عـرض البحر . فكان البحر هادئاً رقراقاً جميلاً أتأمل جمالـه واتسـاعـه وأسـراره . وفجـأة ومن غير مقدمات .. هاجت علينـا عاصفة لا أدري من أين جاءت ! كانت عاصفة عظيمة كسـرت الأعمدة ومزقت الأشـرعة وتقاذفت الناس والأمتعـة . هـرع العمال إلى الأشـرعة ينزلونها ، وإلى الميـاه التي حملها

لهم البحر يبعدونها ، وإلى الصناديق الكبيرة يقذفونها .. لكن العاصفة تشتد ، والموج يعلو ويعلو . تعالى الصراخ والبكاء والهلع والجزع .. وسرعان ما انكسرت السفينة وغرق الناس وهلكت الأموال .

لقد تحطم أمامي كل شيء . أما أنا .. فبينما أنظر إلى ذلك المشهد المخيف وأنا فزع أرتجف ، علتني موجة عالية عظيمة أسقطتني في البحر . أخذت أصارع الموت وأدعو الله بالنجاة من هذا الهلاك الأكيد ، فارتطمت بجسمي قطعة من خشب المركب فتعلقت بها . بقيت على هذه القطعة ساعات طويلة لا أحصي مدتها ، ولا أدري إلى أين ستدفعني وتقودني .

وبعد ساعات وفي ليل بهيم مع هذا المشهد المخيف .. أحسست برمل يلامس أقدامي ، فأدركت أني بلغت اليابسة ، لكني كنت قد بلغت منتهى ضعفي ، فسقطت مغشيّاً عليَّ متعباً لا أدري عن مكاني وزماني . وبعد ساعات من النوم العميق وبعد أن هدأت العاصفة ، أحسست بشعاع الشمس يضرب وجهي ليوقظني من إغماءتي . فقمت أتلفت حولي ، وإذا أنا بحمد الله ومنته وفضله على أرض جزيرة ، أنجاني الله بها من تلك العاصفة المهلكة . كانت والحمد لله جزيرة مسكونة .. لقد رأيت فيها مئذنة مسجد

من بعيد . تحاملت على نفسي وأنا متعب جائع عطشان ومشيت إلى ذلك المسجد . وصلت إلى المسجد ، فشربت الماء البارد فيه ، وأكلت من تمر نخله ، ثم جلست أصلي وأرفع صوتي قليلاً بالقرآن .. شاكراً لله إنقاذي من ذلك الموت المحقق .

فلما سمع من بجانبي من المصلين قراءتي المتقنة للقرآن ، جاءوني مستبشرين مرحبين يسألون عن خبري ، فقصصت لهم خبر السفينة ونجاتي من العاصفة المميتة . فما هي إلا لحظات حتى بعثوا لي من بيوتهم أشهى ما أتمناه من أصناف الطعام والشراب . فأكلت وشربت وشكرتهم جزاهم الله خيراً على كرمهم وحفاوتهم بي . فقال أهل الجزيرة وقد تحلَّق حولي منهم جمع غفير : لقد سمعنا قراءتك الجميلة للقرآن ، فما رأيك أن تعلمنا وتعلم أبناءنا قراءته ، ولك منَّا أن ندفع لك الأجر على ذلك ؟ فعرفت أن الجزيرة ليس فيها شيخ أو معلم ينفع هؤلاء الناس ويعلمهم ، فعلمتهم القرآن . فلم يبق في تلك الجزيرة أحدٌ إلا جاءني قائلاً : علمني القرآن . فحصل لي من هذا التعليم شيء كثير من المال . وبعد يومين .. رأيت في ذلك المسجد مصحفاً قديماً قد أُتلفت بعض أوراقه ، فأخذت أكتب في ورقات جديدة ما أُتلف من ذلك المصحف . فرآني أهل الجزيرة وأنا أكتب

تلك الصفحات وقالوا : تحسن تكتب ؟ قلت : نعم . فقالوا : علمنا الخط والكتابة . فجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب أعلمهم القرآن والقراءة والكتابة ، فحصل لي من المال من ذلك أيضاً الشيء كثير .. فالحمد لله على نعمه وجوده وإحسانه .

مرت شهور وشهور وأنا على تلك الجزيرة أعلم الكبار والصغار ، فألِفْتُهم وألِفوني وأحببتُهم وأحبَّوني . وفي يوم .. جاءني نفر منهم فقالوا : إنا نراك على خير وصلاح إن شاء الله ، وإنا قد أحببناك ونريد أن نخصك بشيء . عندنا صبية يتيمة نريدك أن تتزوج بها .. فما رأيك ؟ فامتنعت ورفضت طلبهم ، فأنا بعيد عن أرضي وأصحابي ولا أعرف كم أنا باقٍ معهم ومتى أرجع إلى بلدي مكة . الزواج يحتاج إلى استعداد وتجهيز وأنا غير مستعد لذلك كله . فقالوا : سنكفيك كل هذه التجهيزات ، وسنعينك في كل ما تحتاج إليه ، فقط وافق على ما جئناك من أجله .. أنت رجل صالح عازب ولا بُدَّ لك من الزواج . وبعد إلحاح منهم ورجاء ، أجبتهم إلى طلبهم وقبلت الزواج بالصبية التي ذكروا .

فلما زفوها إليَّ وهي في كوكبة من النسوة تتقدمهم ، بدأت أنظر إليها وإلى هيئتها .. فأنا لم أرها من قبل . وبينما أنا أنظر إليها وهي تقترب مني ، وجدت عقد الشيخ بعينه معلقاً في عنقها . فأصابتني الدهشة والعجب ، وما كان لي في تلك اللحظات شغلٌ إلا النظر إلى ذلك العقد . فقال لي من حولي من الرجال : أيها المعلم لقد كسرت قلب هذه اليتيمة وأنت معرضٌ عن وجهها ، مقبلٌ بنظرك على ذلك العِقد .. لم لا تنظر إلى وجه امرأتك ؟ فقصصت عليهم قصة العِقد . فما كدت أفرغ من قصتي مع الشيخ ، حتى صاحوا بالتهليل والتكبير ، وبلغ صراخهم أهل الجزيرة جميعهم . ففزعت وقلت : ما بكم ؟ فقالوا : ذلك الشيخ الذي أخذ منك العِقد هو والد هذه الصبية ، لقد عاش معنا دهراً من الزمن ، ولقد سمعناه دائماً يدعو الله ويقول : اللهم اجمع بيني وبين من ردَّ إليَّ عِقدي حتى أزوجه ابنتي .. وقد مات الشيخ ، لكن الله استجاب دعاءه وزوجك إياها .

يقول القاضي أبو بكر البزار لأصحابه فيما بعد : تزوجت تلك الصبية وبقيت معا سنوات ، ورزقني الله منها بولدين . ثم إنَّها ماتت رحمها الله فورثت العِقد أنا وولداي . فمات الولدان رحمهما الله فخلص العقد لي وليس له وارثٌ غيري . فبعت عقد اللؤلؤ بمئة ألف دينار .. وما ترون من

خيل وأغنام وإبل وأبقار ، وهذا البيت الواسع ، وهذا الخير الذي أنا فيه ، إلا كان من الله ثم بركة ذلك العقد .

رغم شوق نفسه إلى ٥٠ ديناراً يسد بها جوعه المهلك الدائم ، إلا أنَّ نفسه قد عفت وصبرت واحتسبت . فلم ينسَ المعطي الجواد الواهب الكريم له ذلك ، فعوضه بـ ١٠٠ ألف دينار . فصدق قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾.

obeikandl.com

المثابرة صانعة العظماء

قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدِيَنَّهم سُبُلَنا وإنَّ الله لمع المحسنين ﴾ . آية ٦٩ من سورة العنكبوت

اطلب ولا تضجر من مطلبٍ ... فآفة الطالب أن يضجرا
أما ترى الحبل بطول المدى ... على صليب الصخر قد أثَّرا

يقول الدكتور عايض القرني في كتابه إشراقات : لن يأتيك النجاح هدية ، ولن توهب المجد عطية ، ولكن بالإصرار والاستمرار تسبق الكبار . ويقول في موضع آخر من الكتاب : من لم يكن في بدايته احتراق لم يكن في نهايته إشراق ، ومن جدَّ في شبابه ساد في شيخوخته . ويقول : ألذ طعام بعد جوع ، وأعذب ماء بعد ظمأ ، وأهنأ نوم بعد تعب ، وأجمل نجاح بعد تضحية .

وقلَّ من جدَّ في أمر يحاوله ... ولازم الصبرَ إلا فاز بالظفرِ

يقول الدكتور بشير صالح الرشيدي في كتابه كيف تحقق أهدافك : لم أجد خلال خبرتي المهنية أشد فتكا بالإنسان من العوامل النفسية ، ولا سيما اليأس والملل والكلل والتشاؤم وحسد الآخرين وذهاب النفس حسرات على تخلفه مقارنة بالآخرين . . إنها فيروسات قاتلة لمعنى التمتع بالحياة . لقد عرفت أن المثابرة والإصرار تؤتي ثمارا يانعة وإن طال الزمن ، ولكن الانسحاب لا يخلف إلا ضعفا .

اطلب العلم ولا تكسل فما ... أبعد الخير عن أهل الكسل
واهجر النومَ وحصِّله فمن ... يعرف المطلوب يحقر ما بذل
لا تقل قد ذهبت أربابه ... كل من سار على الدرب وصل